



النظريات العلمية الحديثة في تفسير القرآن بين الواقع والمأمول

سعد سعد مسعود الأحمد

دكتوراه في التفسير

The scientific interpretation of the Holy Qur'an between reality and hope

- critical study of modernism theories of interpretation -

Written by Saad.S.M.AL-Ahmad

PhD from Cairo University





متوافقا مع هذه الحقائق وعلاقتها بالإنسان.

وفي الواقع لم يكن ظهور هذا الأمر محض صدفة، بل سبقته إرهاصات متنوعة؛ أهمها الثورة العلمية والتكنولوجية العالمية التي قامت على أيدي رواد النهضة الأوربية الحديثة^١.

• أهمية الموضوع:

تتمثل أهمية هذا الموضوع في عدة أمور؛ منها:

أولاً: تسليط الضوء على قضية التفسير العلمي في ضوء الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ومناصرة علماء المسلمين الأفاضل في هذا العصر الذين وجدوا الإعجاز العلمي للقرآن الكريم طريقاً ومسلحاً للدعوة إلى الله (عز وجل) وقارعوا به أهل الغرب حتى أن بعض أولئك الغربيين دخل في الإسلام من هذا الباب.

ثانياً: ليس المقصود من البحث الإجهاز على التفسير العلمي للقرآن الكريم، وإنما الترشيد وعدم الاكتفاء بالنوايا فطريق جهنم تعبه النوايا الطيبة كما يقال.

(١) انظر: النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها ١/٣٤٤، حسن بن محمد حسن الأسمرى، أصل الكتاب: رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه، من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، طبعة مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر واشكره وقد تأذن بالزيادة لمن شكر، القائل في محكم تنزيله ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﷺ سيد البشر.

أما بعد؛ فعلم التفسير من أجل علوم الشريعة ومن أشرفها موضوعاً فموضوعه كلام الله تبارك وتعالى الذي أمرنا سبحانه بتدبره قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وأن مما يعين على تدبره معرفة تفسيره، وقد تعددت اتجاهات التفسير فظهر الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم، ويعد هذا الاتجاه نسبياً نوعاً ما.

ولقد كان ظهور هذا الاتجاه التفسيري متزامناً وتزامناً دقيقاً مع الثورة العلمية والتكنولوجية الحديثة، فكان لهذه المتغيرات التي شملت جميع المجالات وكافة الأصعدة الأثر الواضح على العلوم الشرعية بشكل عام وعلى التفسير بشكل خاص، فبعد أن كان التفسير يتعلق بالعلوم العقديّة والأدبية والتربوية وأقصد من ذلك أنه كان يتناول الجوانب المتعلقة بعلاقة العبد بربه وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وما يتعلق بالأحكام الدنيوية والأخروية أصبح يتجه بشكل واضح إلى الجانب العلمي، الذي يطمح إلى تناول العلوم الكونية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً



- **منهج الدراسة في هذا الموضوع**
تقتضي طبيعة هذا الموضوع - بهذه الطريقة التأصيلية والتطبيقية في الدراسة- الاعتماد على كل من المناهج العلمية التالية:
المنهج الاستقرائي: حيث أقوم باستقراء أقوال المفسرين قديما وحديثا في مسألة التفسير العلمي، وبيان طريقتهم في تناولها من خلال استقراء كلامهم فيها، حيث يتم التركيز على التطبيقات العملية من الواقع.
- **أسباب اختيار الموضوع:**
مما دفعني لاختيار هذا الموضوع ما يلي:
أولا: فك الاشتباك أو الاشتباه بين (التفسير العلمي والإعجاز العلمي) بغرض استكشاف النقاط التي تضيء جانب التفسير العلمي للقرآن الكريم بما يمكن أن يقود إلى نتائج معرفية يستفاد منها في دفع قضية خدمة القرآن الكريم في هذه الناحية العلمية المهمة.
- **تساؤلات الدراسة**
ثانيا: التأويل المتعسف للمعجزة الخارقة للعادة؛ لتكون -بزعمهم- مقبولة في العقل.
إذا كان التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكونية ومكتشفات العلوم الحياتية، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان، فيحق لنا أن نسأل الأسئلة التالي:
أولا: ما حكم التفسير العلمي؟ وما هي ضوابطه؟
ثانيا: ما هي أهم الملامح والمؤشرات التي توضح جانب التفسير العلمي للقرآن الكريم؟ وما هو النقد الذي تم توجيهه إلى التفسير العلمي وكيفية علاجه؟
- **المنهج الاستنباطي والتحليلي:** حيث يتم التركيز على التحليل ومن ثم الاستنباط، ثم التنظير في وضع الضوابط العلمية التي يمكنها ضبط هذا الباب الخاص بالتفسير العلمي.
وبناءً على ذلك فقد اقتضت طبيعة الدراسة اتباع الخطوات الآتية:
أولا: قمت بتعريف المفردات المتعلقة بالمسألة محل البحث وما له صلة بها.
ثانيا: حرصت على بيان صورة المسألة وخصائصها إن وجدت.
- **المنهج الاستقرائي:** حيث أقوم باستقراء أقوال المفسرين قديما وحديثا في مسألة التفسير العلمي، وبيان طريقتهم في تناولها من خلال استقراء كلامهم فيها، حيث يتم التركيز على التطبيقات العملية من الواقع.
- **المنهج الاستنباطي والتحليلي:** حيث يتم التركيز على التحليل ومن ثم الاستنباط، ثم التنظير في وضع الضوابط العلمية التي يمكنها ضبط هذا الباب الخاص بالتفسير العلمي.
وبناءً على ذلك فقد اقتضت طبيعة الدراسة اتباع الخطوات الآتية:
أولا: قمت بتعريف المفردات المتعلقة بالمسألة محل البحث وما له صلة بها.
ثانيا: حرصت على بيان صورة المسألة وخصائصها إن وجدت.
- **تساؤلات الدراسة**
ثانيا: التأويل المتعسف للمعجزة الخارقة للعادة؛ لتكون -بزعمهم- مقبولة في العقل.
إذا كان التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكونية ومكتشفات العلوم الحياتية، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان، فيحق لنا أن نسأل الأسئلة التالي:
أولا: ما حكم التفسير العلمي؟ وما هي ضوابطه؟
ثانيا: ما هي أهم الملامح والمؤشرات التي توضح جانب التفسير العلمي للقرآن الكريم؟ وما هو النقد الذي تم توجيهه إلى التفسير العلمي وكيفية علاجه؟
- **المنهج الاستقرائي:** حيث أقوم باستقراء أقوال المفسرين قديما وحديثا في مسألة التفسير العلمي، وبيان طريقتهم في تناولها من خلال استقراء كلامهم فيها، حيث يتم التركيز على التطبيقات العملية من الواقع.
- **المنهج الاستنباطي والتحليلي:** حيث يتم التركيز على التحليل ومن ثم الاستنباط، ثم التنظير في وضع الضوابط العلمية التي يمكنها ضبط هذا الباب الخاص بالتفسير العلمي.
وبناءً على ذلك فقد اقتضت طبيعة الدراسة اتباع الخطوات الآتية:
أولا: قمت بتعريف المفردات المتعلقة بالمسألة محل البحث وما له صلة بها.
ثانيا: حرصت على بيان صورة المسألة وخصائصها إن وجدت.
- **تساؤلات الدراسة**
ثانيا: التأويل المتعسف للمعجزة الخارقة للعادة؛ لتكون -بزعمهم- مقبولة في العقل.
إذا كان التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكونية ومكتشفات العلوم الحياتية، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان، فيحق لنا أن نسأل الأسئلة التالي:
أولا: ما حكم التفسير العلمي؟ وما هي ضوابطه؟
ثانيا: ما هي أهم الملامح والمؤشرات التي توضح جانب التفسير العلمي للقرآن الكريم؟ وما هو النقد الذي تم توجيهه إلى التفسير العلمي وكيفية علاجه؟
- **المنهج الاستقرائي:** حيث أقوم باستقراء أقوال المفسرين قديما وحديثا في مسألة التفسير العلمي، وبيان طريقتهم في تناولها من خلال استقراء كلامهم فيها، حيث يتم التركيز على التطبيقات العملية من الواقع.
- **المنهج الاستنباطي والتحليلي:** حيث يتم التركيز على التحليل ومن ثم الاستنباط، ثم التنظير في وضع الضوابط العلمية التي يمكنها ضبط هذا الباب الخاص بالتفسير العلمي.
وبناءً على ذلك فقد اقتضت طبيعة الدراسة اتباع الخطوات الآتية:
أولا: قمت بتعريف المفردات المتعلقة بالمسألة محل البحث وما له صلة بها.
ثانيا: حرصت على بيان صورة المسألة وخصائصها إن وجدت.
- **تساؤلات الدراسة**
ثانيا: التأويل المتعسف للمعجزة الخارقة للعادة؛ لتكون -بزعمهم- مقبولة في العقل.
إذا كان التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكونية ومكتشفات العلوم الحياتية، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان، فيحق لنا أن نسأل الأسئلة التالي:
أولا: ما حكم التفسير العلمي؟ وما هي ضوابطه؟
ثانيا: ما هي أهم الملامح والمؤشرات التي توضح جانب التفسير العلمي للقرآن الكريم؟ وما هو النقد الذي تم توجيهه إلى التفسير العلمي وكيفية علاجه؟
- **المنهج الاستقرائي:** حيث أقوم باستقراء أقوال المفسرين قديما وحديثا في مسألة التفسير العلمي، وبيان طريقتهم في تناولها من خلال استقراء كلامهم فيها، حيث يتم التركيز على التطبيقات العملية من الواقع.
- **المنهج الاستنباطي والتحليلي:** حيث يتم التركيز على التحليل ومن ثم الاستنباط، ثم التنظير في وضع الضوابط العلمية التي يمكنها ضبط هذا الباب الخاص بالتفسير العلمي.
وبناءً على ذلك فقد اقتضت طبيعة الدراسة اتباع الخطوات الآتية:
أولا: قمت بتعريف المفردات المتعلقة بالمسألة محل البحث وما له صلة بها.
ثانيا: حرصت على بيان صورة المسألة وخصائصها إن وجدت.
- **تساؤلات الدراسة**
ثانيا: التأويل المتعسف للمعجزة الخارقة للعادة؛ لتكون -بزعمهم- مقبولة في العقل.
إذا كان التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكونية ومكتشفات العلوم الحياتية، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان، فيحق لنا أن نسأل الأسئلة التالي:
أولا: ما حكم التفسير العلمي؟ وما هي ضوابطه؟
ثالثا: كيف يمكننا التعامل مع التفسير العلمي؟ وما هي آلية الاستفادة منه؟



المبحث الأول

مفهوم التفسير العلمي وأسباب نشأته

لقد لقي النص القرآني منذ بداية التنزيل عناية فائقة شملت جميع جوانبه من حفظه، وفهمه، وجمعه ومن ثم العمل به وتطبيقه حيث كان الرسول ﷺ يكشف ما استغلق من الآيات ويفصل ما أجمل من المعاني، لذلك ظلّ التفسير في مراحل الأولى لصيقًا بالحديث النبوي طوال القرن الهجري الأول حتى منتصف القرن الثاني، ومع عصر التدوين تواصل التداخل بين التفسير والحديث، فظهرت في مدونات الحديث النبوي أبواب خاصة بالتفسير دون إحاطة كاملة بالنص القرآني، ثم جمع المتفرق من تلك الموضوعات لتصاغ في تفسيرات شاملة ومستقلة.

ولم يكن تفسير النص القرآني تفسيرًا علميًا ظاهرًا إبان ذلك لكنه ظهر شيئًا فشيئًا بعد استقلال التفسير بالتأليف؛ وكان من إرهاصات ظهوره هو الاعتماد على مسلك الرأي والاجتهاد كطريقة من طرق التفسير؛ وقد مارس الصحابة - وبشكل محدود - بعد عصر النبوة الاجتهاد في التعامل مع النص عندما لم يتمكنوا من اللقاء بالرسول ﷺ أو لم يعرفوا نصًا في تأويل آية ما، ثم جاء عصر التابعين ووجد من التابعين من كان يفسر القرآن برأيه أكثر منه في زمن الصحابة رضي الله عنهم، وليس هذا موضع

من كتب السنة، مع ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف، وذكر آراء نقاد الحديث القدماء والمُحدّثين فيه، أُحيل على مصدر الحديث أو الأثر بذكر الجزء والصفحة، ثمَّ عنوان الكتاب، والباب، ثمَّ رقم الحديث أو الأثر في المصدر.

• خطة البحث

تحتوي خطة البحث على: مقدمة، وأربعة مباحث، ثم الخاتمة، ثم الفهارس العلمية. المقدمة، وتتضمن: أهمية هذا الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكالية الدراسة، ومنهج الدراسة في هذا الموضوع، ثم الخطة الإجمالية للبحث. المبحث الأول: مفهوم التفسير العلمي وأسباب نشأته.

المبحث الثاني: النقد في التفسير العلمي ملامحه ومراتبه.

المبحث الثالث: نماذج من التفسير وفق نظريات افتراضية.

المبحث الرابع: أسس ومعايير قبول التفسير العلمي.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس العلمية، وتتضمن الآتي:

أولاً: فهرس المصادر والمراجع.

ثانياً: فهرس الموضوعات.

وفي ختام هذه المقدمة: أرجو من الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد والقبول، إنه نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



بسط ذلك^١.

ما يعرف بالتفسير العلمي.

مفهوم التفسير لغة واصطلاحاً، والتفسير العلمي:

أ- التفسير لغة: فأصل الكلمة من فسر^(٣)، والفَسْرُ هو البيان، فَفَسَّرَ الشيءَ وَفَسَّرَهُ أَبَانَهُ وَالتَّفْسِيرُ هو الفسر كما قاله ابن الأعرابي، وهل هو بمعنى التأويل؟^(٤).

وبالرغم من هذه الاستقلالية المبكرة للتفسير كان فهم النص القرآني يستند أساساً إلى مرجعية الأثر النبوي، حتى انتقل التفسير شيئاً فشيئاً إلى ساحة التجربة الإنسانية الجديدة التي رسمت معالمها تحولات سياسية واجتماعية وفكرية ناتجة عن الفتوحات الإسلامية وحركة الترجمة واختلاط المسلمين العرب بالعجم الناتج عن الفتوحات، وظهور فرق كلامية ومذهبية متعددة أسهمت في تجيير فهم القرآن الكريم، وفق المنظور العقدي الفكري تارة، ووفق المنظور المذهبي تارة أخرى.

ثم بدأت تظهر في وقت متأخر تفاسير تحاكي الواقع المجتمعي الجديد، فألفت مؤلفات في التفسير الأدبي، وهكذا ظهرت تفاسير لكامل آيات القرآن الكريم تخص موضوعات معينة ما كان لها وجوداً قبل تلك التحولات الفكرية والثقافية.

ثم ما لبثت هذه الدائرة قليلاً إلا وقد انفتحت على مصراعها بمرور الوقت شيئاً فشيئاً حتى التقت

بالمعرفة العلمية التي تفجرت منها النهضة العلمية العالمية في العصر الحديث^٢، ومن هنا ظهر

عن مسرح الفكر، وتحول العلم المادي إلى مذهب مادي. وأصبح من الممكن "أن يطلق المرء بصفة عامة على مادية القرن التاسع عشر اسم مادية العلوم الطبيعية؛ لأنها كانت تستند على نتائج هذه العلوم التي كانت قد تطورت تطوراً كبيراً... وطغى التفسير المادي على كل الجوانب، وأصبحت كل الحقائق تفسر تفسيراً مادياً... ولم يعد يسمى بالمذهب المادي، بل يقال: المذهب العلمي أو المادية العلمية، وشاركها في القرن نفسه مذهب آخر يزعم لنفسه أيضاً العلمية وهو المذهب الوضعي، ويقصدون من كلمة الوضعي أي العلمي، كان ذلك مع الفيلسوف الفرنسي "كونت". انظر: النظريات العلمية الحديثة ١٤٤١/٣٤٤، د. حسن بن محمد حسن الأسمرى.

(٣) وقول بعض الفضلاء أن الفسر مقلوب عن سفر دعوى تفتقر إلى دليل.

(٤) انظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، بتحقيق وترتيب: الدكتور عبد الحميد هنداوي، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م (٣/٣٢١)، ومعجم مقاييس اللغة (٤/٥٠٤)، أحمد بن فارس بن زكريا، بتحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ولسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، طبعة: دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى. (٥/٥٥)، مادة، (فسر)، والعين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، بتحقيق وترتيب: الدكتور عبد الحميد هنداوي، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م (٣/٣٢١).

(١) ينظر مقال بعنوان: التفسير العلمي وتَعَطُّل المنظومة الثقافية الإسلامية، أحميدة النيفر، مفكر تونسي، شبكة إسلام أون لاين، الشبكة الدولية للمعلومات.

(٢) قام الماديون في هذه المرحلة بعمل جاد لتحويل فيزياء (نيوتن) على وجه يخدم الرؤية المادية، فنقلوا العلم المادي إلى المادية العلمية، تلك المادية التي ازدهرت بعد تراجع التيار المثالي وغياب فيلسوفها الألماني المشهور (هيجل)



ذهب جماعة من أهل العلم المتقدمين: الكثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز كالشافعي^(١)، والبخاري^(٢).
والتطبري^(٣)، وعند بعض أهل اللغة: كالأخفش^(٤)، وهو أحد الأقوال الثلاثة، وقد سئل أحمد بن يحيى عن التأويل فقال: «التأويل، والمعنى، والتفسير واحد»^(٥).
وذهب آخرون إلى التفريق بينها فقالوا: جميعها تتفق من حيث الموضوع، لكن يستقل كل منهم بمعنى خاص من حيث التفصيل، فالتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل ردّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، والتفريق بينها إنما وقع من المتأخرين^(٦) للتفريق في الاستعمال وبيان ما يتوقف عليه كل نوع منها، فالسبب في اصطلاح

الكثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط^(٧).
ويبدو لي أن جميعها بمعنى واحد كما قرره الزرقاني^(٨) على المشهور من المعاني اللغوية، بل إن الفيروز آبادي^(٩) فسر التأويل بالتفسير، وأما ما رجحه بعض المفسرين من أن التفسير بيان الظاهر، والتأويل حمل الكلام على غير ما يقتضيه الظاهر، فهذا يرده فعل المفسرين أنفسهم كالتطبري، وغيره مثلاً: عندما يقول تأويل قوله كذا ثم يذكر المعنى الظاهر.
والخلاصة هنا: أن معنى التفسير لغة دائر على معنى البيان، والكشف، والإيضاح.
وأما التفسير اصطلاحاً:

- (١) انظر: الأم، (٣٣٧/٧).
(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تفسير سورة النصر، برقم: ٤٦٨٦، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، بتحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، طبعة: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، وقد آثرت ذكر هؤلاء النجباء الثلاثة لاختلاف مدارسهم ومشاربهم وتخصصاتهم مما يدل على توافقتهم على جعل التفسير، والتأويل بمعنى واحد.
(٣) وقد سمي تفسيره جامع البيان في تأويل آي القرآن.
(٤) انظر: معاني القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة، بتحقيق: د. هدى محمود قراعه، طبعة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ / ١٩٩١م، (١/١١٥).
(٥) انظر: لسان العرب، لابن منظور، (٣٣/١١).
(٦) انظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط ولتدبر والمفسر، الدكتور مساعد بن سليمان الطيار، طبعة دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة: ١٤٣٣هـ، (ص ١٠٢).
(٧) كما ذكره غير واحد من مفسري الصحابة - رضي الله عنهم - قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «معرفة معاني القرآن، والعمل به»^(١٠)، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - انظر: البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار المعرفة - بيروت، ١٣٩١هـ، (٢/١٧٢).
(٨) انظر: المصدر السابق (ص: ٣٣٠).
(٩) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، بتحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (ص ٩٦٣).
(١٠) مأخوذ من قوله - رضي الله عنه -: «كَانَ الرَّجُلُ مِتًّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلُ بِهِنَّ»، انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير ابن



-تعالى-: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فيأتي بهذه المصطلحات العلمية، ويحاول أن يفسر بها عبارات القرآن الكريم، ويجتهد الذي يفسر القرآن تفسيرًا علميًا في استخراج مختلف العلوم، مثل تناقض ضغط الجو والأكسجين، كلما ارتفعنا في الفضاء وفق مفهوم هذه الآية^(٦).

ومن الأمثلة والنماذج التي وقفت عليها استنباط خلو الشكل الهندسي للمثلث من الظل من قوله تعالى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، قال السيوطي -رحمه الله- في استنباط ذلك: «فإن فيه قاعدة هندسية وهو أن الشكل المثلث لا ظل له»^(٧)، وقال أيضا في موضع غيره: «فإن الشكل المثلث أول الأشكال، فإذا نُصب في الشمس على أي ضلع من أضلاعه لا يكون له ظل لتحديد رؤوس زواياه، فأمر -الله تعالى- أهل جهنم بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل تهكماً بهم»^(٨). وهذا الأمر كما هو واضح مما تتشوف النفوس للتعرف

الله عنهما-: «التفصيل^(١)»، وقال مجاهد^(٢)، وقتادة^(٣): «التفسير هو البيان»، مع العلم أن غالب المتقدمين لم يقصد إلى تفسير مصطلح التفسير ويبدو لي أن ذلك بسبب وضوحه لهم، وليس هو موضع بحث.

• التفسير العلمي على سبيل التركيب:

والمقصود هنا بيان معنى التفسير بالإضافة إلى العلم كما يقال: التفسير العلمي للقرآن، وبالاستقراء لما سبق يتضح أنه يمكن التعبير عنه بأنه: (بيان الآيات القرآنية التي تحمل في طياتها أخبارا ودلالات على حقائق، أو نظريات، أو معطيات، أو مكتشفات حياتية، سواء كانت مبرهنة بالدليل أو مسببة بالتعليل فقط)^(٤)، وعرفها بعض المعاصرين بقوله: (هو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن الكريم)^(٥)، وذكر المؤلف من أمثلة ذلك قوله

غالب الطبري، (ت ٣١٠ هـ)، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، (٨٠/١).

(١) انظر: جامع البيان للطبري، (١٩/٢٦٧).

(٢) انظر: المصدر السابق، (٨٠/١).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، بتحقيق: سامي بن محمد سلامة، طبعة: دار طيبة، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، (٦/١٠٩).

(٤) وهذا التعريف اجتهاد مني قابل للأخذ والرد والقصد منه تقريب المعنى فقط.

(٥) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص ٩، المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية طبعة ونشر: جامعة المدينة العالمية، <http://www.medi.u.edu.my>.

(٦) انظر: المصدر السابق.

(٧) انظر: الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، بتحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٨) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن ٣٠٩/١، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.



الكريم العلمية وربطها بالمكتشفات الحديثة. خاصة أنه قد وجد من عموم كلام العلماء قديما وحديثا ما يشجع على الولوج في هذا الباب وقصده، ومن جملته قول ابن تيمية - رحمه الله -:
”من المعلوم أن الله - تعالى - أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟!“^(١).

* * *

عليه ولذلك نشأت عدة أسباب أدت إلى ظهور هذا اللون من التفسير أعني (التفسير العلمي) والتي يمكن تلخيص أهمها بعدة جوانب من أبرزها:
أولاً: تعطش الناس للجوانب العلمية الحديثة والشغف بها ورغبتهم في معرفة موقف القرآن منها، مع وجود فراغ كبير متعلق بهذا الجانب في التفاسير القديمة.

ثانياً: حدوث تطورات ووقائع واكتشافات علمية ونوازل جديدة استعدت لمعرفة موقف القرآن الكريم منها.

ثالثاً: وجود النصوص القرآنية التي تدعو وبكل وضوح إلى التأمل والتفكير في الآيات الكونية، وإثارة أعداء الإسلام لعجز الدين الإسلامي عن مواكبة التطورات والمتغيرات الحديثة.

رابعاً: ذكر القرآن الكريم لكثير من الحقائق العلمية المادية كأطوار الولادة ومراحل نمو البشر وجريان الشمس، وغير ذلك من الحقائق العلمية التي أثبتتها العلم في العصر الحديث.

خامساً: وقوع ما اصطلاح عليه باسم (الإعجاز العلمي) في القرآن الكريم دون وجود ما يردده أو يصدده أو يعارضه.

كل هذه الأسباب والعوامل وغيرها دعت وبكل قوة إلى ظهور الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم وجعل له مؤيدين كثير يشجعون هذا الجانب ويحثون الباحثين على النظر فيه وتثوير^(١) مكنونات القرآن

من قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين» أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» ص ٢٢٩ برقم ٨٥٤، والطبراني في المعجم الكبير ٩ / ١٤٦ برقم ٨٦٦٦، من طريق شعبة عن أبي إسحاق عن مرة عن عبد الله بن مسعود، وسنده صحيح، انظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور الجوزجاني (ت ٢٢٧هـ)، طبعة دار الصميعي، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ١١٥، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، بتحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة دار الكنوز الأدبية، السعودية - الرياض: ١٣٩١هـ.

(١) التثوير: هو نوع خاص من التنقيب والبحث وهي مأخوذة



المبحث الثاني

النقد في التفسير العلمي

ملامحه ومراتبه

الطائفة الأولى بذلك ممن اتخذ جانبي الحيطة والحذر الشديدين، وقد دفعهم إلى هذا التوجه عدة أمور ومحاذير يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أولاً: التوسع في تفسير القرآن على معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن، وهذا أمر غير مقبول، لأنه يؤول بالقرآن إلى معان غير مقصودة.

ثانياً: التوسع في تفسير ألفاظ ومعاني القرآن على غير ما عرفه العرب؛ لأن هذا قد يخرج القرآن عن عربيته التي نزل بها.

ثالثاً: البحث في هذه المسائل العلمية ليست من مهام أو اختصاصات القرآن الكريم، فهو كتاب هداية وبيان لم يقصد إلى ذكر الاكتشافات والنظريات العلمية.

رابعاً: لا يشترط لهذه النظريات العلمية موافقة القرآن الكريم أو اعتبار مطالبة القرآن بموافقتها أو مخالفتها كلما تغيرت من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان.

خامساً: إقحام القرآن في مثل ذلك يفضي إلى وجود صراعات بين العلم والدين خاصة إذا فسر القرآن وفق نظرية ما ثم تبين خطأها أو تغييرها أو غير ذلك.

سادساً: أن هذه النظريات العلمية الحديثة قد توافق القرآن وقد تخالفه؛ لأنها ليست حقائق مطلقة فلا يصح ربطها بالقرآن الكريم حتى لا يرجع نقضها

جميعاً، وقد ذكر في تفسيره عدة صور من الإعجاز حول ذرات الكهرباء وغيره من الصور العلمية المتوافقة مع القرآن ينظر على سبيل المثال: تفسير المنار ١٢/١٧ وما بعدها.

في الحقيقة وقبل محاولة معرفة معايير التفسير العلمي وضوابط قبوله، يجب التأكيد على أمر مهم، وهو أن ظهور التفسير العلمي المعاصر لم يكن في الحقيقة يلقي قبولاً أو رواجاً عند المتأخرين^١، فقد قابله جملة من العلماء^٢، بالاعتراض في الوقت نفسه الذي استقبله آخرون بحماس واندفاع^٣، وقد كانت

(١) من أبرزهم الشيخ محمد الذهبي - رحمه الله - صاحب كتاب التفسير والمفسرون، والشيخ محمد مصطفى المراغي كما هو ظاهر في تقريره لكتاب (الإسلام والطب الحديث)، والأستاذ أمين الخولي كما في كتابه (التفسير معالم حياتي منهجي اليوم)، وجملة من العلماء المعاصرين رحمهم الله جميعاً.

(٢) من أبرزهم وأقدمهم في هذا الشاطبي - رحمه الله - فقد ذكر في سفره العظيم (الموافقات) جملة من الاعتراضات على هذا النوع من التفسير، وكان من أهم النقاط التي انتقدتها فكرة جعل القرآن حاوياً لجميع العلوم الدنيوية، ينظر لمزيد تفصيل: الموافقات ٢/١٢٩، إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) بتحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، طبعة: دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٣) ومن جملة من وجد عنده بعض هذا الحماس الشيخ محمد الغزالي، والشيخ طنطاوي جوهرى، وقد ظهر ذلك جلياً في تفسيره الجواهر في تفسير القرآن الكريم، والشيخ محمد رشيد رضا كما في تفسير المنار - رحمهم الله



ومن عجائب هذه الآية أنها وردت في سورة فصلت فكان مما فصل فيها ذكر الآيات البينات والمعجزات بفعل الاستقبال (سنريهم)، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^٦.

مع أن التفسير الراجح لهذه الآية أنه كان خطابا لأهل الكفر والعناد حينها، وما ظهر بعد ذلك من نصر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظفره بأعدائه، ولكن لا يوجد مانع من شموله لأهل العناد والكفر في كل زمان ومكان؟! لا سيما وأن القرآن وبالاتفاق مما لا ولن تنقضي عجائبه^٧، كما أن الأولى والأكمل في حقه ومكانته كما هو مبثوث في كتب أصول التفسير حمله على جميع المعاني إذا احتملها ولم يترتب على ذلك معنى مخالفا للآية ومقصدها^٨.

أو اكتشاف عدم صحتها على تصديق القرآن الكريم وعصمته وقدسيته^(١).

وفي الحقيقة إن الأسباب والدواعي والعوامل التي ذكرها هذا الفريق من باب سد الذرائع وهي جدية بالأخذ والاعتبار عند الترجيح.

وأما الفريق الآخر من العلماء والمفسرين فإنه ذهب إلى أن هذا القرآن الكريم لم يكن كما يفهم من توجه الفريق الأول وكأنه نزل لأناس معينين وفي زمن معين، وهذا عندهم مما يخالف العبرة به على مر الزمن، وقد قال -تبارك وتعالى-: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذه الآية وإن ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في قريش فإن العبرة كما هو الراجح من مذاهب الأصوليين^٢، والمفسرين^٣، والفقهاء^٤، بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لا سيما إن كان اللفظ أعم من السبب أخذ بعموم اللفظ^٥.

(٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب: فضائل القرآن: باب: كيف نزول الوحي وأول ما نزل برقم: ٤٩٨١، صحيح مسلم كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقم ١٥٢، واللفظ للبخاري.
(٧) انظر: مقدمة تفسير القرآن الحكيم ١/١٩، محمد رشيد بن علي رضا ب القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
(٨) انظر: محاسن التأويل ٨/٢٠٤، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، بتحقيق: محمد باسل عيون السود، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ.

(١) انظر: لمزيد تفصيل التفسير العلمي للقرآن في الميزان ص ١٠٣-١١١، تأليف د. أحمد عمر أبو حجر، طبعة دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: ٢٠٠١م.
(٢) انظر: الإحكام للآمدي، ٢/٢١٩، ونهاية السؤل للإسنوي، ٤٧٧/٢.
(٣) انظر: إيجاز البيان للإيجي، ١/١٥١، والتفسير الكبير للرازي، ٣/٦٩٧.
(٤) انظر: العناية شرح الهداية للبابرتي، ١/٧٥، الذخيرة للقرافي، ٦/٢٧٢، والمجموع للنووي، ١٩/٢٩٤.
(٥) انظر: تصحيح الفروع للمرداوي، ١١/١٧.



البطالة مستقبلا، وسيأتي الرد على هذه المخاوف بشكل عام.

القسم الثاني: وهم القلة من المعارضين، وينقسمون في حقيقة الواقع إلى فريقين كذلك، وهذان الفريقان يدوران بين المستنكف عن الإسلام الكاره لتعاليمه المقيدة له، وبين الخارج أصلا عن ملة الإسلام، بل ويسعى إلى هدمه وتدميره:

الفريق الأول: هم فريق الحداثيين، والليبراليين، والعلمانيين، والمستغربين المنتسبين للإسلام، وهؤلاء دفعهم إلى هذا القول عدم رغبتهم في حكم الإسلام لهم، وهؤلاء هم دعاة المدنية الغربية المبنية على أهواء وشهوات الناس ورغباتهم وتطلعاتهم الدنيوية المادية المحضة المطلقة، وفي الحقيقة إن دعواتهم المتكررة إلى اختزال الدين وجعله في حيز التدين الوجداني هو عين ما يحتاج به أصحاب المعارضة للتفسير العلمي خوفاً عليه!، لكنهم ينطلقون من مبدأ الطعن والتشكيك لا مبدأ الحفظ والصيانة.

وأحسب أن أستاذنا الدكتور محمد إبراهيم شريف -رحمه الله- قد أجاد في رسالته الماتعة "اتجاهات التجديد في القرآن الكريم" في رأب صدع بعض هذه المآخذ، ونفي وجود الضدية المدعاة بين الإيمان والعقلية حيث يقول: "والحقيقة أن هذه النقطة تحتاج إلى توضيح فرياضة النفس الإنسانية على الإيمان تنفصل في رأيهم عن أسباب الثقافة العلمية، وهذا هو الذي ينبغي أن يتأمل بدقة.

في الحقيقة إن من لوازم مثل هذه النصوص أن يبقى هذا القرآن الكريم دائما وأبدا ظاهرا على غيره بالحجج والبراهين التي تقطع أهل العداة له في كل زمان ومكان، لا سيما في العصور التي يضعف فيها أهل الإسلام أنفسهم عن نصرته والدفاع عنه^١.

وأما بالنسبة لما ذكره المعارضون فكل ما ذكره جرت خلفه مخاوف دعت لظهور هذا الاعتراض وبتأمل هذه الاعتراضات أو الوقفات يمكننا وبعد التأمل الخلوص إلى أن المعارضين ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: وهم جمهور المعترضين من المسلمين، وكل ما ذكره هؤلاء دائر على دوافع، أهمها: (١) الرغبة في عدم تعرض معاني القرآن الكريم للتحريف.

(٢) القرآن الكريم كتاب هداية وبيان، والخوض في مثل هذه الأمور يخشى منه خروج القرآن عن غايته العظمى وهدفه الأسمى.

(٣) عدم تصور هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم تصورا صحيحا خاصة وأن القرآن حمال أوجه.

(٤) الخوف من الوقوع في التعسف والتكلف لتأويل آيات القرآن وفق نظرية أو بحث علمي ما ثم يثبت خلافها خاصة مع تطور العلم الحديث شيئا فشيئا فما كان مسلما اليوم قد يكون أحد التصورات

(١) انظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص ٢٩٣، عبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي (ت ١٣٥٩هـ)، بتحقيق: أحمد شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.



والمستشرقين الغربيين، وهؤلاء دوافعهم معروفة وهي الرغبة في هدم الإسلام ومحاربة انتشاره وارتفاعه في أنحاء المعمورة بعلم أيقنوه أو بجهل استبطنوه أو عناد استوطنوه، وليس هذا موضع بسط الكلام عنهم^٣، وما يهمنا هنا هو الجواب عن جميع هذه الإشكالات ودفعها بوضع ضوابط ومعايير دقيقة تمنع من وقوع هذه المخاوف وتحفظ للقرآن الكريم قدسيته وهيمنته.

وقد يقال بأن المعترضين مصيبون من جهة أن فتح مثل هذه الباب على مصراعيه يفضي إلى تحريف معاني القرآن الكريم فيقع ما كنا نحترز منه في التفسير الإشاري، ذلك أن بعض غلاة الصوفية، والشيعية^٤، والإسماعيلية الباطنية، والملاحدة، استغلوا قول بعض سلفنا الصالح أن للآيات ظاهراً وباطناً، فذهبوا إلى إخراج القرآن عن معناه الحقيقي الذي نزلت الألفاظ لأجل بيانه إلى القول بمعاني مستحدثة غريبة ومن ذلك:

١. قولهم^٥ في قوله - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

(٣) انظر: رسالة علمية ماجستير للباحث بعنوان: (الاتجاه النقدي في تفسير القرآن الكريم خلال القرن الرابع عشر الهجري دراسة نظرية تطبيقية)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة من ص ١١٥ - ١٢٦.

(٤) ومثاله: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} نجد المفسر الشيعي أبو النظر العياشي يفسرها فيقول: "عن أبي عبد الله قال وأمر بالعرف الولاية".

(٥) انظر: لطائف الإشارات ١٢١/٣، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، بتحقيق: إبراهيم البسيوني، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر،

إنهم يرون أنه من الممكن إقامة فاصل بين الخبرة الدينية ومطالبها والاقتناع العلمي والتجريبي في نطاق العلم، وفي رأينا أن هذا ينطوي على خطأ فهو يمزق وحدة العقل الإنساني ولا شك أن هناك تفاعلاً بين الجانب العلمي والديني من الإنسان كلاهما يعطي الآخر. فإذا كان القرآن كتاب هداية وإرشاد فإن آياته العلمية لا تحول دون هذه الهداية المبتغاة، بل تؤكد ما وتدعو إليها الجاحدين، أه^(١)، وهذا الكلام هو عين ما أبرزه ابن تيمية قبل ما يزيد عن سبعة قرون من التوافق بين الدين القويم والعقل السليم.

ومن أبرز المسائل التي تستدل بها هذه الطائفة مسألة تلبس الجن، ومعارضة الطب الحديث لها، والذي أثبت وجود شحنات كهربائية متصاعدة في الدماغ تؤدي إلى وجود الصرع مما ينفي حديث صرع الجن للآدمي، وهو كلام غير دقيق ويكفيينا في رده أن نقول بأن هذه الشحنات الزائدة التي جعلوها سبباً للصرع دون التلبس ما يمنع أن تكون أثراً لصرع الجن؟!، أو يكون الصرع على نوعين كما ذكر ابن القيم، وليس هذا موضع بسط الرد على هذه الطائفة^٦، وإنما المراد هنا الإشارة إليها.

الفريق الثاني: فريق غير المسلمين، من الملل المخالفة للإسلام كاليهود، والنصارى، والملاحدة،

(١) انظر: اتجاهات التجديد، أ.د محمد إبراهيم شريف - رحمه الله -، ص ٤٨٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن الحكيم ٨٠/٣، محمد رشيد رضا القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.



• الترجيح بين المذهبين^٢:

والصحيح عندي أن وجود مثل هذه الانحرافات والتحريفات يجب ألا تدفعنا إلى سد هذا الباب جملة واحدة، أعني باب البحث عن عناية النص القرآني بالإعجاز العلمي، ذلك أن وصد باب هذا الجانب المهم قد يفضي بالطائفة الأخرى الطعن في بلاغة النص القرآني، ورضانة أحكامه وقواعده وتشريعاته التي تأصل صلاحيته لكل زمان ومكان. لا سيما مع ظهور الأصوات الناشئة التي تنادي اليوم جهاراً نهاراً بعدم صلاحية الأحكام الشرعية للتطبيق اليوم، بل لعلها تعالت وتوالت على وتيرة لم تعهد من قبل، ضف على ذلك أن الخطاب العلمي العالمي اليوم لا يقبل إلا لغة العقل المصدق بالدليل والتجربة، وإن من أحق ما قد يصدق العلم الحديث هو كتاب الله - تعالى -، وإذا ما رجحنا القول بالأخذ بالتفسير العلمي فهل هذا الأمر يدفعنا للأخذ به على إطلاقه؟! والجواب عنه يأتي في ضوابط لذلك يمكننا ترتيبه وتنظيم مراتب التفسير العلمي إلى ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: تفسير القرآن وفق الحقيقة العلمية.

المرتبة الثانية: تفسير القرآن وفق النظرية العلمية.

المرتبة الثالثة: تفسير القرآن وفق التجربة العلمية.

المرتبة الرابعة: تفسير القرآن وفق الفرضية العلمية.

وكل مرتبة من هذه المراتب له حكمه واعتباره في استعماله وتوظيفه في تفسير النص القرآني وبيان (٢) انظر: الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي ص ٣٦، أ.د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، طبعة: دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ.

وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿[الروم: ٤١]﴾، الإشارة من البرِّ إلى النَّفس، ومن البحر إلى القلب!.

٢. قولهم أن أبا بكر وعمر كانا منافقين قصدهما إهلاك الرسول، وأن أبا لهب أقامهما لذلك وأنهما يدا أبي لهب وهو المراد في زعمهم بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

٣. وقولهم إن الإشراك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] هو إشراك أبي بكر وعلي في الولاية، وأن الله أمره بإخلاق الولاية لعلي دون أبي بكر وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^١ وغيرها من التأويلات الغريبة والعجيبة على لغة القرآن ومقصده، بل والفاصلة المعنى في نفسها فضلاً عن غربتها عن عادات القرآن وعرفه.

فهل نأخذ بالمصالح والحاجات التي ذكرها الفريق المؤيد لهذا النوع من التفسير المعاصر؟ أم نعارضه للأسباب التي ذكرها أصحاب الفريق المانع؟

الطبعة الثالثة.

(١) انظر: بغية المراتد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ٣٣٢، أحمد بن عبد الحلیم تیمیة الحراني (ت ٧٢٨هـ) بتحقيق: موسى الدويش، طبعة: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.



وأما المرتبة الرابعة: فهي أضعف هذه المراتب

والمقصود منها العلم المجرد عن التجربة والمبني على مقدمات موروثية أو مكتسبة من الآخرين، الفرضية نسبة إلى (افتراض) وهو ما يعتمد على الفرض بدلاً من التجربة أو الخبرة^٢، فهي مما اتفق على عدم اعتباره في تفسير القرآن الكريم، لأن الفرضية نفسها معوزة إلى إثباتها فضلاً على أن تكون أصلاً لإثبات غيرها، ولعلها تكون نظرية متوهمة مبنية على مقدمات باطلة، ولذلك أثبتت كثير من الدراسات التجريبية المعاصرة في المرتبة التي تسبقها خطأ كثير منها.

وأما المرتبة الثانية وهي (النظرية) فيبقى السؤال في مدى إمكانية اعتبارها وقبولها في التفسير العلمي؟^٣

وهذه المرتبة مبنية في أصلها على التجربة والبرهنة العلمية، والمقصود بها ما ثبت صحته بالتجربة والممارسة من قبل المختصين في هذا المجال المكتشف أو المجرب أو الملاحظ مرة بعد مرة، ومثاله ما يحتويه جسد الإنسان من السوائل، أو عدد مرات تنفس الإنسان في اليوم الواحد، أو

(٢) انظر: مادة: الفاء، فصل: ف ر ض، معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) طبعة: عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ومنه لغة: افترض الأمر: أي اعتبره قائماً أو مسلماً به.

(٣) وقد ذكر الدكتور راتب النابلسي جملة منها في موسوعته: (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، طبعتها دار المكتبي في سورية - دمشق في طبعتها الثانية ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م في مجلدين، وذكر جملة من النظريات العلمية التجريبية تحتاج في حقيقة الأمر إلى تحقيق وتدقيق.

إعجازه، على النحو الآتي:

ففي المرتبة الأولى: وهي الحقيقة العلمية والمقصود بها ما ثبت كونه أمر واقعي ثابت بالعيان والبيان بحيث يمكن إثباته للسائل أو للناظر، ولا يمكن إنكاره بحال من الأحوال، ومن ذلك أصل ظلام الكون، وكون الشمس حارة محرقة، أو أن القمر لا ضوء ذاتي له، أو كون حجم الشمس أكبر من الأرض بمرات، أو أن من الكواكب ما يسير ويجري في الفضاء الخارجي، وأن النار تحرق من يلمسها، وجود قوة تجذب الأجسام تعرف بالجاذبية الأرضية وغيرها من الحقائق.

فهذا النوع لا شك باعتباره في التفسير العلمي والأخذ به، لأنه لا يمكن نقضه أو بطلانه بحال من الأحوال.

والمرتبة الثالثة: والمقصود منها التجارب التي تم ممارستها من قبل العلماء فوجدوها تصلح تارة وتارة لا تصلح، أو التي ما زالت تخضع للبرهنة على صحتها مرة بعد مرة وهذه ولا شك من قبيل الوهم وليس العلم، فلا يجوز إخضاع القرآن وما فيه من الآيات لمثل هذه التجارب ولا شك، كتجربة وجود غاز الأكسجين أو الماء في المريخ وغيره من الكواكب، وأساطين المفسرين يعترضون على من فسر القرآن بروايات ضعيفة مروية في دواوين السنة لكن لا تصح، فكيف بتجارب لا زمام لها وخطام^١.

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٤٦/١.



المبحث الثالث

نماذج من التفسير العلمي وفق النظريات الافتراضية

لا شك وكما قلت سابقاً من أن هذا القرآن الكريم كتاب هداية ونور وهو تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل ما أنزله الله في هذا القرآن العظيم من حقائق علمية فهو من الأمور التي لا تقبل التكذيب أو النفي أو الإنكار بحال، بمعنى أنه لا يمكن لمدع أن يدعي بأن الحقيقة العلمية الثابتة بالدليل والبرهان تخالف الحقائق والبراهين المذكورة في القرآن الكريم، إلا أن تسارع بعض المسلمين وتهافتهم على تخرصات الغرب لا سيما المهتمين بالعلوم الحديثة، والتي أصابت الكثير منهم بما يعرف بهوس المعلوماتية، وعدم ضبطهم لباب الشمولية المقصودة في القرآن الكريم. فصاروا يلون أعناق النصوص تماشياً ومسايرة لكل ما ينعق به الغرب من معلومات مغلوبة هي في حقيقتها مخالفة للقرآن الكريم، ونسوا أو تناسوا أن سنن الله الإلهية قدر سابق كما أخبر بذلك المولى -تبارك وتعالى- فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وأن هذه السنن الإلهية والكونية لا تتحول ولا تتبدل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

كون بعض الغازات أثقل من البعض الآخر، أو أن ثمة مخلوقات كانت قبل الإنسان استناداً إلى علم الأحفوريات... الخ.

وهذه المرتبة في ظني هي موضع الجدل الدائر في التفسير العلمي للقرآن الكريم وعليه يأتي الكلام في مدى إمكانية قبوله؟ ومعايير وآلية الأخذ به كما سيأتي.

* * *

(١) جمع مفردة أحفوري نسبة إلى أحفورة، وهو علم مختص بالحفر والتنقيب لدراسة كيفية تطور الحياة خلال الزمن الجيولوجي، ومنه الوقود الأحفوري: وهو وقود ناتج من تحلل الأحياء البائدة من مئات السنين ويعد حالياً من أهم مصادر الطاقة في العالم. انظر: مادة: الحاء، فصل: الفاء، معجم اللغة العربية المعاصرة ٥٢٠/١، د. أحمد مختار.



كون هذه الأمور النظرية لا تعدو كونها حبراً على ورق، وهي قابلة للتغير أبد الدهر، فكلما تطور العلم وجدوا مما أثبتوه سابقاً سداجة وسفاهة وغلطا^(٢)، ووجدوا أن القرآن الكريم أثبت ما أنكروه سابقاً؛ ولذلك فإن تسارع المسلمين اليوم إلى ما يظنون أنه حقيقة علمية وما هو إلا سراب وهمي يكاد يأتي على القرآن الكريم بالضرر وليس بالنفع.

نعم إن ما يدفع كثيراً من المسلمين إلى ذلك حرصهم على إثبات صحة هذا الدين للغرب وبيان أنه هو الدين الموافق للمنقول والمعقول معا إلا أن هذا الحماس يكاد يذهب برونق القرآن الجميل ونور بهائه اللطيف، والغرب يعرفون حقيقة الأمر وأن هذا الدين حق ولا شك في ذلك كما أخبر بذلك تبارك وتعالى عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

والسؤال هنا: هل وصلنا من ضحالة الفكر والمنطق إلى مستوى تصديق كل ما يطلق عليه الغرب حقيقة علمية أو مسلمة ثقافية؛ فنجذبها تجاه النصوص القرآنية مطوعين معانيه قسراً وفق هذه النظريات؟! والتي منها نظرية: (صعود القمر)،

(٢) ومن جملة هذه الترهات ما يعرف بنظرية دارون التي تنص على عودة كل المخلوقات إلى أصل واحد!! والتي أنكرتها جامعات العالم اليوم لا سيما بعد بيان غلطها التي عاش وتغنى بها الغربيون حيناً من الدهر، وقد وجد من المسلمين من حاول موافقتهم وتطويع معاني القرآن لأجل ذلك.

مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٦﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦٧﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٢].
وبأنها ماضية لا تتوقف بحال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْطَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨].

وبأنها لا تخالف ولا تنفع معها المخالفة قال -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَعَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥].

إلا أن المعاندون والمكابرون لا يتعظون بها ولا ينتفعون منها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]^(١).

ولذلك فإن ادعاء الكثير من الغرب ومن تأثر بهم من عموم المسلمين لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً من

(١) معوقات النهضة العلمية في الدول العربية والإسلامية، محمد إبراهيم خاطر، طبعة دار ابن الجوزي - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م، ص ٣٣٥.



- والتي يمكن نقضها بالسؤال عن سبب عدم تكرار هذه التجربة رغم (ادعاء) نجاحها قبل أكثر من نصف قرن من الزمن؟!.
- ومن ثم يأتي الواجب التبعي علينا بسبب الهيمنة الغربية الإعلامية بجعله حقيقة علمية لا يقبل بعضهم الشك بها بحال من الأحوال؟! والتي يبدو أنها سبقت وروجت من قبل المثقفين الغربيين وإعلامهم في حقبة تاريخية ما لأغراض سياسية أو اقتصادية الله أعلم بها!.
- دراسة نموذج تطبيقي معاصر:
- لنظرية بلوغ سطح القمر وتحديد مكان وقوعه بالنسبة إلى الكرة الأرضية.
- قد يقول متأمل لهذا العنوان وما الضير في إثبات مثل ذلك لا سيما أنه مما لا ينافي القرآن الكريم صراحة، والجواب عنه: ليس المقصود هنا تكذيب ما يقال بقدر معرفتنا بأن المطلوب هو التحقق من تلك الأخبار العلمية وعدم المسارعة إلى برهنتها بتطويع آيات القرآن وافقها، فإن قال قائل: إن القرآن الكريم قد جاء بمثل ذلك، فقد قال -تعالى-:
- ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ [الرحمن: ٣٣].
- أن هذا الكلام عند التحقيق والتحرر لا يصمد كثيرا فهو مركب من مقدمات خاطئة والتي أدت إلى نتائج مغلوطة وبيان ذلك:
- المقدمة الأول: عدم مراعاة معاني الألفاظ وتراكيب الكلام.
- المقدمة الثانية: عدم تحري مكان وقوع القمر والكواكب.
- النتيجة: القول بظرفية القمر في السماء وإمكانية بلوغ السماوات بدليل بلوغ سطح القمر.
- نقض المقدمة الأولى من ثلاث جهات:
- الجهة الأولى: عدم تحرير المعنى الصحيح (الأقطار).
- الجهة الثانية: عدم تحرير المعنى الصحيح (سلطان).
- الجهة الثالثة: عدم مراعاة السياق.
- نقض المقدمة الثانية من ثلاث جهات:
- الجهة الأولى: مصادمة الأدلة الصحيحة.
- الجهة الثانية: إبطال ظرفية القمر المكانية في السماء.
- الجهة الثالثة: تحقيق موقع القمر والكواكب السيارة والنجوم.
- النتيجة:
- أولا: نقض المقدمة الأولى من ثلاث جهات:
- الجهة الأولى: عدم تحرير معنى أقطار.
- إن عدم تحري الكثير من الإعجازيين والمتحمسين للعلوم الحديثة لمعاني ألفاظ القرآن الكريم أوقعهم في غلط التأويل، وهذا الأمر أعني بذلك التسرع في موافقة النظريات مذموم من غير جهة فلا يلزم الإسلام ولا القرآن موافقة أو مخالفة كل نظرية أو حتى حقيقة علمية، بمعنى أن القرآن كتاب هداية وبيان وهذا الكتاب يحمل في طياته ما يظهر الإعجاز العلمي على سبيل إثبات صدقه



٣٣] قال ابن فارس: «القطر: الناحية والأقطار: الجوانب»^(١)، إذا فالقطر بضم القاف وتسكين القاف في معناها اللغوي هو: طرف الشيء وحده وجانبه، وليس منفذه كما فهم كثير من الإعجازيين والحدائثيين.

يدل عليه ما جاء في التنزيل من قوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

أي: من جوانب المدينة، فإذا تبين لنا هذا المعنى علمنا أن الآية ليس فيها بيان إمكانية ذلك بل هي من باب التعجيز والتحدي، كأن تقول للرجل تعجيزاً إن استطعت أن تفعل فافعل تريد تهديده أو تحديه، وهذا معلوم استعماله في لغة العرب ومثله قوله -تعالى-: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. سورة الكهف: ٢٩.

فهذا ليس من باب حرية الديانات كما يريد إثباته كثير من الحدائثيين والمستغربين بدليل أنه قال بعدها -تعالى-: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وإلا فأى البشر يستطيع النفوذ من حجاز أو فاصل سماء واحدة، فضلاً عن سماوات وأرضين سبع فضلاً عن نهايات هذه الجوانب والأطراف والحدود فيها فتأمل!؟

(٢) انظر: لسان العرب، مادة قطر، ١٠٦/٥.

(٣) انظر: مقاييس اللغة ١٠٥/٥.

وبرهنة ذلك، وليس معنى ذلك أن يحمل بين دفتيه جميع ما في الكون العظيم من ظواهر واكتشافات وغير ذلك. والآخذين بهذا المبدأ حاولوا لي أعناق النصوص وحرفوا الكلم عن مواضعه لأنهم ظنوا أن القرآن حوى جميع الحقائق العلمية وهذا اعتقاد خاطئ، فالقرآن فيه ما يبرهن على صدقه من الدلال الكونية والعلمية واللفظية والبلاغية وغير ذلك، ولا يقتضي ذلك أن يحوي كل ما في تلك العلوم.

وعدوة إلى بيان ما نحن بصدده فإن الذي استدل بآية الرحمن على إمكانية بلوغ القمر خطأ في معرفة معني الأقطار ولذلك جوز أن يكون معنى الآية: «إن استطعتم أن تتجاوزا حجاز السماوات» أو فسر الأقطار بالشمس والقمر والنجوم. إلخ أو غير ذلك^(١)، فكان هذا التأويل أول عشرة في فهم الآية فإن الأقطار في اللغة هو جانب الشيء وطرفه قال ابن منظور: «والقطر، بالضم: الناحية والجانب، والجمع أقطار. وقومك أقطار البلاد: على الظرف وهي من الحروف التي عزلها سيبويه ليفسر معانيها ولأنها غرائب.

وفي التنزيل العزيز: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [سورة الرحمن:

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ١٣/١، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، - دمشق سوريا، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م فقد حكى هذا القول الأخير بقوله: "قال عالم آخر: الأفاق تعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار".



- الجهة الثانية: عدم تحرير المعنى الصحيح لـ ذلك بأنه السلطان في كلام العرب.^٤
- مصطلح (السلطان) ومن الأغلط التي وقع فيها أصحاب هذا التأويل المحدث هو تفسير السلطان بالعلم الحديث مع أن المحكي في ذلك عن المفسرين غير ذلك، فهذه الآية قد ذكر المفسرون فيها حالان:
- الأولى: أن ذلك يكون يوم القيامة عندما تنشق السماء وتكون وردة كالدهان؛ فإنه لا يكون ثمة مفر^(١)، فهي من باب التقرير والتخويف.
- الثانية: أن تكون في الدنيا فهي من باب التحدي والتعجيز.
- وأما المقصود بلفظ (السلطان) فقد اختلف فيها المفسرون على ثلاثة أقوال^(٢):
- أ- قيل: ببينة^٣.
- ب- قيل: بحجة، وهو قول مجاهد، وجاء عن عكرمة أن كل سلطان في القرآن فهو بمعنى حجة، والحجة بمعنى البينة كذلك جعلهما الطبري وعلل
- ج- قيل: بملك أو سلطان من الله: وليس لكم ملك، وروي عن قتادة^٥.
- والملاحظ في هذه الأقوال أن ليس فيها معنى العلم البتة ولم يذكره أحد من المفسرين؛ ولذلك قال صاحب الكشاف فيها: "يا معشر الجن والإنس كالترجمة لقوله: أيها الثقلان إن استطعتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي، فافعلوا، ثم قال: لا تقدرن على النفوذ إلا بسلطان يعنى بقوة وقهر وغلبة، وأنى لكم ذلك..."^(٦).
- كما أننا نرى أن ابن الجوزي^٧ ذكر هذه الأقوال الثلاثة ولم يحك عن أحد من أهل العلم ذكر السلطان بمعنى العلم؛ بل إن المفسرين وكما سيأتي قريباً جعلوا هذه الآية على وجه التحديد من مشاهد القيامة كما ذكره ابن كثير وغيره^٨.
- وجميع المفسرين على ذلك حتى المتأخرين منهم قال الطاهر بن عاشور-رحمه الله-: «هذا مقول قول محذوف يدل عليه سياق الكلام السابق
- (١) انظر: تفسير الطبري ٤٢/٢٣.
- (٢) انظر: المرجع السابق ٤٤/٢٣.
- (٣) البين لغة هو: بعد الشيء وانكشافه، ومنه قول عمر -رضي الله عنه- في كتابه إلى شريح: الحميل لا يورث إلا بيينة. قلت: ولا تعرف العرب البين بمعنى العلم، وإن قيل هو كذلك: قلنا هو كقوله تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة البقرة: ١١١]، وهو من قبيل التعجيز لأنهم يقدرن عليه متى حاولوا، ومن قال بيينة قال: أي من الله كما في رواية ابن عباس انظر: جامع البيان للطبري مقاييس اللغة ٣٢٨/١، ولسان العرب لابن منظور ١٧٨/١١.
- (٤) انظر: جامع البيان، ٤٤/٢٣.
- (٥) انظر: المصدر السابق.
- (٦) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٤٤٩/٤، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧ هـ.
- (٧) انظر: زاد المسير في علم التفسير ٢١١/٤، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، بتحقيق: عبد الرزاق المهدي، طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- (٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤٩٦/٧.



واللاحق، وليس خطابا للإنس والجن في الحياة الدنيا... والشرط مستعمل في التعجيز، وكذلك الأمر الذي هو جواب هذا الشرط من قوله: فانفذوا، أي وأنتم لا تستطيعون الهروب»^(١).

الجهة الثالثة: عدم مراعاة السياق

والمتمأمل في سياق هذه الآية يلاحظ أنها سيقت أصلا في معرض ذكر أهوال القيامة والتخويف من الله -تعالى- وحسابه، ومن تأمل ما قبلها وما بعدها أدرك ذلك فقد قال الله قبلها: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾، وهذا الفراغ كائن يوم القيامة إجماعا، والفراغ المقصود هنا هو الحساب فقد حكى ابن كثير عن ابن عباس -رضي الله عنهما أن ذلك وعيد من الله للعباد، ونقل تفسير البخاري وقوله في معناها: (سنحاسبكم).

ثم قال ابن كثير: «وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب {إلا بسطان} أي: إلا بأمر الله»^(٢)، فسياق ما قبل الآية في يوم القيامة، ثم قال بعدها: وقال بعدها: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣١-٣٩].

وهذا مثله مثل التخرص في تأول قوله -تعالى-: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

ثانيا: نقض المقدمة الثانية وذلك من ثلاث

جهات:

الجهة الأولى: مصادمة الأدلة الصحيحة.

إن من الأخطاء التي ارتكبتها المجوز بلوغ القمر الذي هو في السماء على حد زعمهم موافقة للآية، مصادمة الأدلة الصحيحة الصريحة في عدم إمكانية البشر بلوغ السماء الدنيا فضلا عن السماوات الأخرى، وهذا الأمر يفهم من مجموع الآيات التي أشارت إلى ذلك، مما يدل على أن مسألة بلوغ السماء وامتناعه أمر محسوم قضاه الله في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وكذلك حكى -سبحانه وتعالى- عن الجن في محاولتهم ذلك: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا مُلْأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ [الجن: ٨]، وقد ضرب افتراض وقوع ذلك في القرآن فدل على أنه ليس بواقع فقال -تعالى-: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤:١٥]، ولو حرف امتناع لامتناع فدل على أن أبواب السماء مؤصدة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٧/٢٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق.



مغلقة دون من يحاول ذلك .
وقال -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. أي: محروسة من أن تنال أو تطال ولذلك قال ابن كثير -رحمه الله-: «محفوظا. أي: عاليا محروسا أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعا»^(١).

ومما يؤكد ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل: لخازن السماء افتح، قال: من هذا؟ قال هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة...»^(٢).

الجهة الثانية: إبطال ظرفية القمر المكانية في

السماء.

يتبين من الوجه الأول استحالة كون تصور القمر في السماء ولا حتى السماء الدنيا، وذلك أن الحديث الذي مر معنا آنفا جاء تارة بلفظ السماء الأولى، وتارة بلفظ السماء الدنيا، فالأحاديث جاءت مرة بهذا ومرة بهذا؛ فدل على أن السماء الدنيا هي السماء الأولى فإذا احتج من احتج بعموم ظواهر الأدلة على أن القمر في السماء، قلنا أن ذلك ليس بمسلم

فهذان سيدا المتقين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام - لم يفتح لهما حتى يستأذنا! أفيعقل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣٤٠/٥، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤)، بتحقيق: محمد حسين شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٩ هـ.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء، برقم: ٣٤٩، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ برقم: ١٦٣.

(٣) انظر: أضواء البيان، ١٥٣/٣.



ومن الباب حديث معاوية بن الحكم في الجارية وفيه يقول: «كانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكنني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيتها بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها، فإنها مؤمنة»^٣.

وليس المقصود منه أنه سبحانه داخل السماء وإنما في السماء أي: في العلو والأدلة عليه كثيرة ليس هذا مقام بسطها، وقد أردت الإشارة إلى أحد جوانب ضعف المقدمة الثانية، وعليه فلا يستقيم القول بأن القمر في السماء.

وأما ما يستدل به الفريق القائل بذلك من قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، فذكر بأن القمر مظروف في السماء؟

والجواب عنه: أن (في) هنا ليس المقصود منها الظرفية المكانية، وإنما المقصود بها (على) فيكون معنى الآية وجعل عليها قمرا منيرا، وهذا مثاله لو أن أحدا علق إنارة على الحائط فإنه لا يقال بأن الإنارة داخل الحائط! بل يقال على الحائط، فإذا قال قائل:

ومن أين لكم ذلك قلنا له نظائر ذلك في القرآن كثيرة؛ منها قوله تعالى عن جواب الملائكة: ﴿قَالُوا

لكم إطلاقا، وذلك أن السماء لغة يطلق على كل ما علا الإنسان وارتفع عليه، يقول الراغب الأصفهاني: «كما يبين الشيء بأوصاف كثيرة، كذلك قد يتبين بأسماء كثيرة متضمنة لأوصاف مختلفة، كقولك في الجرم العلوي: السماء لما اعتبر ارتفاعها بالإضافة إلى الأرض»^١.

وأمثاله في القرآن الكريم كثيرة منها قوله -تعالى-: ﴿وَيَقَوْمٌ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، والمرسل هنا هو السحاب لكن عبر عنها بالسماء لارتفاعها على الناس.

وقوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] مع أن ارتفاع الشجرة قد لا يتجاوز المترين لكن أضاف علوها للسماء لأنها تعلق الأرض، وغير ذلك في القرآن الكريم كثير جدا وأكثر من أن يحصى، ومن هذا الباب قوله -تعالى- عن نفسه: [الملك: ١٦]، وليست السماء ظرفا له -تعالى- وتقدس وإنما ذلك إشارة إلى علوه -سبحانه وتعالى-، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب فسمت المطر سماء لنزوله من السماء^٢.

(١) انظر: تفسير الراغب، ١/١٣١.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ٥/٥٠٩، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني الحنبلي (ت ٧٢٨هـ)، بتحقيق: مجموعة من المحققين، طبعة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: بدء الأذان، برقم: ٥٣٧.



قال: من أنصاري منضمين إلى الله...^(١)، بمعنى أن الحرف يقوم مقام الحرف إذا أدى معنى معين من السياق لا في كل حال.

وكذلك استدلالهم بقوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، فإنه كما أشرت من كون في هنا بمعنى على هذا من جهة أخرى لا أدري أي وجه لما قالوه هنا والله -سبحانه- قد ذكر قبلها السماوات فقال -جل وعلا-: ﴿الْمَ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۗ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦]، فهل تقولون بأن القمر نور لجميع السماوات؟ وأنتم إنما تحصرونه في سماء واحدة وهي السماء الدنيا، فأى دليل لكم في هذا، والاستدلال إذا طرقة الاحتمال سقط به الاستدلال.

الجهة الثالثة: تحقيق موقع القمر والكواكب السيارة والنجوم.

التحقيق: لم يبق لنا بعد ما سبق تأصيله إلا أمرا واحدا وهو تحديد مكان القمر، فإننا إذا نفينا وقوع القمر في السماء على جهة الظرفية! فأين سيكون مكان القمر؟

أقول: والتحقيق في ذلك يقال: القمر يقع في الفضاء الخارجي مما يلي الأرض وليس هو في السماء، ويترتب على هذا المذهب، ألا يكون لخبر صدق بلوغ علماء الفضاء إلى القمر أو عدم بلوغهم

(١) انظر: الخصائص ٢٦٦/٣، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.

أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] والله قد جعل خلقه على الأرض لا داخلها.

وكذلك قوله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ونحن إنما نمشي على الأرض لا فيها، وقوله: ﴿وَلَا أَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وفرعون إنما صلبهم عليها لا داخلها.

وقوله: ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، والمقصود على نفسه، وهذا كله من تناوب أحرف الجر كما هو معروف وهو كثير كقول الرجل: (أعطني من زكاتك)، أو (عن زكاتك)، أو يقال: (اكتب على اللوحة) أو (اكتب في اللوحة)، وكقولنا: (مشيت حتى البيت) و (مشيت إلى البيت)، وغير ذلك الكثير والكثير ليس هذا موضع بسطه، إلا أنه لا بد من الإشارة هنا من أن هذا التناوب اللغوي، له أثره بمعنى أن هذه الأحرف لا تتناوب مطلقا ولكن باعتبار المعنى التي وقعت فيه من الكلام وقد أشار إلى هذا المعنى ابن فارس بحذق وألمعية قائلا:

« قول المفسرين في قول الله -تعالى-: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مع الله ليس أن (إلى) في اللغة بمعنى مع، ألا تراك لا تقول: سرت إلى زيد، وأنت تريد: سرت مع زيد، هذا لا يعرف في كلامهم، وإنما جاز هذا التفسير في هذا الموضع؛ لأن النبي إذا كان له أنصار فقد انضموا في نصرته إلى الله، فكأنه



وضعف الحجاج، ومن يقول هذا إنما يهرف^(١) بما لا يعرف، وكل ما يذكر من مسافات وأبعاد إنما هو في مكان مقارب للسماء الدنيا بما فيها المسافة التي توصل للقمر لأنه لم يتم إثباته علمياً، وعلى فرض صحته فإنه يكون في غلاف الفضاء الخارجي مما يكون حول الأرض ومحيط بها، دون السماء الدنيا، وليس في الآية دليل على جواز تجاوز السموات أو شيء من هذا القبيل.

وعليه فتكون الآية وكما ظهر لنا سيقت مساق التعجيز والتحدي، وقد تبين أن كل هذه الإشكالات تحدث عندما يتخذ من قضية الإعجاز العلمي دليلاً منفكاً ومجتزأً عن معاني النصوص الأصلية وما تعارف عليه العرب من معاني اللفظ ودلالته، مما قد يوقع الاشكال في فهم آيات القرآن الكريم.

على فرض كذبه تأثيراً على هذا القول؛ لأن الجهة منفكة، إذا فالمسألة ذات شقين:

الشق الأول: وهو ما يتعلق ببلوغ سطح القمر، وهذا لم يدل الدليل على إمكانية أو عدمه من الكتاب والسنة ولذلك فإن وقوعه أو عدم وقوعه ليس فيه تعارض مع القرآن الكريم.

الشق الثاني: وهو ما يتعلق ببلوغ السماوات فضلاً عن مجاوزتها فهذا ممنوع ووقوعه البتة لما سبق ذكره من الأدلة التي تدل بظاهرها وصراحتها على امتناعه.

النتيجة: وينتج مما سبق رفض تفسير السلطان بالعلم الحديث أو ما يعبر عنه بـ التكنولوجيا^(١) الحديثة (technology)، عند الغربيين وهو أمر غير مقبول وهو في الحقيقة كما تبين من قلة العلم

(١) لغوياً التكنولوجيا كلمة أعجمية إغريقية الأصل (technique)، وهي تعني في عصر الحضارة اليونانية والرومانية القديمة كل الفنون المتعلقة بالمهارة والبراعة وحذق الصناعة، ولها مرادف معرب اقترحه مجمع اللغة العربية بدمشق واعتمدهت الجامعة العربية وبعض الدول عربية، ويمكن تعريفها اصطلاحاً: بأنها علم تطبيقي يهتم بدراسة الصناعات والفنون والحرف وكل ما يتعلق بها من مواد ووسائل، أو يمكن تعريفها على أنها الجهد المنظم الرامي لاستخدام نتائج البحث العلمي في تطوير أساليب العمليات الإنتاجية لتسخير البيئة المحيطة بالإنسان وتطوير ما فيها من مواد وطاقة لإشباع مصالحه الضرورية والحاجية والتحسينية... وبصورة عامة مجموع السبل التي توفر للإنسان حياة مادية آمنة. انظر: مجلة البيان السعودية العدد: ٢٣٨ ص ٣٧، ٢٧ من رمضان ١٤١٠هـ، إصدار: المنتدى الإسلامي.

(٢) وهو التخريف، قال ابن فارس: "الهرف كالهذيان... يقولون: لا تهرف بما لا تعرف"، مادة (هرف)، (٤٨/٦).



أَتَتْهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿[فصلت: ٥٣].

المبحث الرابع

أسس ومعايير قبول التفسير العلمي

وتجدر الإشارة هنا إلى أن رفض التفسير العلمي يجب أن يكون بمبررات قوية مقبولة، فنحن بطبيعة الحال نرفض التفسير العلمي للقرآن إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت أو لم تستقر بعد، فلم تصل عندنا إلى درجة الحقيقة العلمية، ومرفوض كذلك إذا خرج التفسير العلمي بالقرآن عن عربيته من أجل إثبات علم ما من العلوم، ومرفوض كذلك إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً، ومرفوض أيضاً إذا خالف ما دل عليه صريح القرآن أو صحيح السنة النبوية.

بل إن العلم الحديث ومع تطوره قد يبطل هذا التفسير العلمي الهش، ومن جملة ذلك أن بعض المتكلمين تكلفوا تفسير السماوات السبع والكرسي والعرش العظيم أو تأويلهن بالأفلاك التسعة عند فلاسفة اليونان المخالف للقرآن، وأن علم الفلك الأوربي قد نقض في القرون الأخيرة تلك النظريات الخيالية، بالأدلة العلمية من رياضية حسابية هندسية، ومن طبيعية عملية كتحليل النور وسرعته ووزن الحرارة، وأن ما ثبت في علم الفلك الحديث ومباحث التكوين قريب من نصوص القرآن، كبعده عما يخالف من نظريات اليونان^١.

وأما في غير ذلك فهو مقبول إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة، والتحري والاحتياط

لا بد من الإشارة مع اقتراب أفول مباحث هذه الدراسة إلى أن سلفنا الصالح كانوا يتخوفون من القول في التفسير بغير علم ومن ذلك قول إبراهيم التيمي -رحمه الله -: «سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»، وقال أنس -رضي الله عنه -: «سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - قرأ هذه الآية ثم قال: «كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله إنه التكلف، وما عليك يا بن أم عمر ألا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه»^١.

وعلى هذا فمن يفسر القرآن بنظرية غير ثابتة فهو في الحقيقة إنما يفسر برأيه على غير نوااميس العلم والنظر، بخلاف من يفسره باعتبار هذه القوانين الثابتة، لأنه حينها يُعمل فيه ما يوضح معناه وما يرشد إليه من علوم، وهذا يشهد له في التصديق كلام رب العزة وكفى بالله شهيداً على صدقه بقول المولى - عز وجل -: ﴿سَتْرِيهِمْ أَآيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

(٢) انظر: تفسير المنار ١٢/١٨.

(١) انظر: تفسير القرطبي لسورة عبس ١٩/٢٢٣.



وهي كما ظهر لي ضوابط متعلقة بذات المفسر ومعايير متعلقة بذات التفسير وتطبيقاته^٢.
فأما الضوابط فمن الممكن أن أذكر منها على سبيل الإيجاز:

أ- معرفة قواعد التفسير وأصوله ومباحث علوم القرآن المعروفة المبسطة في كتب التفسير وقواعده.

ب- الإلمام بلغة العرب، وقواعد النحو، وأسرار البلاغة، وما يتعلق بكل نوع منها.

ج- معرفة غالب المأثور من أحاديث الرسول ﷺ في تفسير القرآن الكريم وما يتفرع منها ويعد من أصول علوم القرآن كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ لتعلقهما المباشر بتفسير النص القرآني.

د- الإلمام بغالب مباحث علوم القرآن الكريم. الاطلاع على جهود المفسرين السابقين، بحيث يتمكن من توظيف المعارف المتاحة في زمانه لإضافة بُعدٍ جديد للقرآن الكريم هو بعد التفسير العلمي.

(٢) وقد رأيت إطلاق لفظ (الضابط) في ذات أدوات المفسر لأنها عادة ما ترد فيما يتعلق بالشخص والعالم لا المعلوم، ولفظ (المعيار) في المعلوم لا العالم أي: في الأمور التطبيقية العملية لأنها عادة ما ترد في قياس غير الشخص، فأصل المعيار هو الميزان التي توزن به الأشياء، ولذلك نجد في كتب اللغة والمعجم تعريف الموازين والمكاييل بالمعيار فيقال مثلاً القنطار هو معيار وزن يساوي كذا وكذا، ثم استعير لفظ المعيار للاستعمال في غيرها. انظر: لسان العرب ١١٨/٥، محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله، وهو - أخيراً - مقبول ممن رزقه الله علماً بالقرآن وعلماً بالسنن الكونية التي أكدها القرآن أو أشار إليها ولو على سبيل العظة العبرة.

ولقد أوردت بعض المصادر إلينا أنه قد وقع خلاف بين العلماء في هذا النوع من التفسير منذ زمن ليس بالبعيد، ولا زال الخلاف قائماً حتى هذه الساعة، وقد كتب بعض المعاصرين ووضعوا المؤلفات حول المؤيدين والمجيزين وأخرى عن المانعين والمعترضين وقد اعتنى أكثرهم في الحكم دون الالتفات إلى التوفيق والتحقيق.

والراجح من وجهة نظري أن تفسير القرآن الكريم وفق منظور علمي حديث جائز إذا تمت مراعاة ضوابط وشروط علمية معينة خاصة بعلم التفسير، ومنسجمة مع أسسه الرصينة، يقول الطبري في مقدمته: «وأما الأخبار التي ذكرناها عن ذكرناها عنه من التابعين، بإحجامه عن التأويل، فإن فعل من فعل ذلك منهم، كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في التوازل والحوادث، مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه، إلا بعد إكمال الدين به لعباده، وعلمه بأن الله في كل نازلة وحادثة حكماً موجوداً بنص أو دلالة.

وقد بذلت وسعي في تكيف ذلك مع ما لا يتعارض مع قواعد وأصول التفسير المتفق عليها،

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن ٨٩/١، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.



هـ- الفهم الذي يُرزقه العبد وما يتفتق في ذهنه - سبحانه وتعالى -.

من معان للقرآن الكريم تتجلى له من خلال تدبره لكتاب الله الكريم، وبتوظيف ما سبق ذكره في إدراك تلك المعاني والتوفيق بينها وبين مقاصد القرآن وقواعده وأصوله، مع عدم جزم المفسر بأن هذا هو معنى النص القرآني.

هذا من حيث الضوابط المتعلقة بالمفسر ذاته، ولا نطيل النفس فيها وإنما ذكرتها على سبيل الإيجاز لأنها مبثوثة في كتب أصول القرآن وقواعده، بل غالب من فسر القرآن إنما ذكر جملة منها في مقدمة مؤلفه كابن جزى الكلبي^(١)، وأما بخصوص ما يتعلق بذات التفسير فلا بد من وجود معايير واضحة يتقيد بها من قصد التفسير العلمي للقرآن الكريم، وفيما يلي جملة من المعايير التي من الممكن أن تُحكّم التفسير العلمي.

هذه الآية تبين لنا أن الله - تعالى - قد قطع وعدا للذين يحققون دين الإسلام في حياتهم ويتحاکمون إليه في حياتهم وفي أنفسهم أن يجعل لهم العزة والنصر والظفر والظهور على أعدائهم، وهذا وعد قائم إلى يوم القيامة غير مختص بزمان ولا مكان، ومن مقتضيات هذا النصر بذل أسبابه الروحية والمادية كذلك، فلا يعقل أن ينتصر المسلمون على أعدائهم وهم لا يملكون ما يدفعون به شر العدو، فكان من لوازم ذلك أن يملك المسلمون ما يكون سببا في قوتهم من عدة وعتاد وصناعة وغيرها... إلخ.

المعيار الأول: تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً يكون وفق لغة العرب وقواعدها.

لأن القرآن نزل بلغتهم فلا يسار إلى ما لا يرد من لغتهم وإلا رجح الإبطال على ألفاظ القرآن، فاللفظ قالب المعنى متى أخرج عن حيزه بطل المقصود من الكلام، ولا يفهم من ذلك عدم تفسير القرآن إلا بما فسره به الأولون من معانٍ، بل هذا تضيق لمعاني القرآن التي لا يحيط بها إلا المتكلم بها

وهذا المعنى لا ينافي مقتضى لغة العرب فالنصر بأي صورة كان، وبأي وسيلة مشروعة تحقق فهو داخل في معنى الآية، فيكون من جملة أسباب الاستخلاف التي لا بد منها لا سيما إذا ورد من النصوص ما يؤيد هذا المعنى المنسحب على التفسير العلمي الحديث، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ

(١) انظر: مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، بتحقيق: د. عبد الله الخالدي، طبعة: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.



نصوص شرعية ثابتة يظهر منها التعارض مع تلكم الحقائق، فعليه أن يلجأ إلى سبل التوفيق والانسجام المعروفة بقدر المستطاع كحمل النص على التأويل خاصة إذا كان من النصوص المحتملة، أو يعمل على حمل الحقيقة العلمية الملاحظة أو المكتشفة على التغير.

فإن عجز عن ذلك كله اتهم عقله القاصر وقد سبق أن ذكرت ما جاء عن ابن تيمية وغيره من أنه لا تعارض بين العلم الصحيح والعقل الصريح^٢، وأي وجود لمثل هذا التعارض أو ما يظهر منه الاختلاف فإنما يكون بسبب قصور في الفهم، فالشريعة قد تأتي بما تحار به العقول، ولكنها لا تأتي بما تحيله العقول. وعليه فيكون من دلالات صحة التفسير العلمي توافقه مع التفسير المأثور ووروده على سبيل الاعتضاد وتمكين المعنى وترسيخه لا مضادته وإزالته، ولذلك نجد ابن كثير يقول عند تفسير قوله - تعالى -: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. أي: تلك آيات الله يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيانات نتلوها عليك بالحق أي متضمنة الحق من الحق^٣، فكل ما تضمنه التفسير العلمي مما هو موافق لصحة

بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وحينها تصبح الصورة واضحة بأن المراد من الآية أن الإعداد يكون على المستويين الروحي المحسوس والمادي الملموس.

والمهم هنا أن يفسر المعنى بما هو معروف من لغة العرب لا أن يحدث معنى لا تعرفه العرب أو يقيس معنى على معانيهم فيحث فهما جديدا لم تعهده العرب، فما صح منه عن العرب يقتصر عليه، ولا يقاس^١.

المعيار الثاني: تفسير القرآن الكريم وفق الحقائق الثابتة لانظريات ودراسات غير محققة.

والمقصود بذلك عدم تفسير القرآن وفق النظريات العلمية، وعدم التسارع إلى محاولة التلفيق لا التوفيق جريا عمية خلف كل ما يطلقه العالم الحديث من مكتشفات حديثة معاصرة، والرغبة في إثبات صحة القرآن الكريم من خلالها، وهذا الفعل كما لا يخفى ضرره أكبر من نفعه لأنه يعود على القرآن بالبطلان ما إذا تبين بطلان هذه أو تلك النظرية.

المعيار الثالث: تفسير القرآن الكريم وفق العلوم والمكتشفات الحديثة الثابتة يكون على سبيل التوافق والتآلف، لا التضاد والتعارض.

وهذا المعيار مبني على المعيار السابق بمعنى أن المفسر إذا ثبتت لديه حقيقة علمية مع وجود (١) انظر: التبیین عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيین، عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦هـ)، بتحقيق: د. عبد الرحمن العثيمين، طبعة: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤/٤٠١، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، بتحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، طبعة: دار العاصمة - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ٧/٢٤٤.



النفط وتسمى (أطوموبيل)^٣، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء، فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها» أهـ.

آية النمل في قوله -تعالى-: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] (٤).

المعيار السادس: ألا يقصر ويحصر معنى الآية على هذا المعنى الحادث.

فلا يجعل هذا المعنى الحادث هو المراد لثلا يؤدي ذلك إلى إبطال المراد الأول من التفسير، ولو فتحنا المجال لذلك لجعل كل من يأتي بعد ذلك يغير تفسير الآيات وفق متطلبات عصره ومكتشفاته وقته الكونية، فيبطل ذلك هيبة القرآن وعظمته في قلوب المسلمين ويحرف عن مقصده الأعظم.

المعيار السابع: أن يكون هذا القول صحيحاً في ذاته كما هو الحال في التفسير الإشاري غير متكلف بحال.

إن المبالغة في تأويل القرآن والاستغراق في الدلالة وبواطنها دون اصطحاب نص الدليل ذاته يخرج معانيه عن مقصدها، ومن ذلك ما قد نجده في كتب

(٣) وهي كلمة أجنبية أصلها (Auto Mobil). أي: السيارة المتحركة.

(٤) انظر: قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير ص: ٧٠٢-٧٠٤، د. عبيد بنت عبد الله النعيم، طبعة: دار التدمرية، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

معناه فهو مقبول وداخل في مقصد التفسير.

المعيار الرابع: عدم نقض التفسير العلمي لأقوال المفسرين المتقدمين.

لا سيما التي اتفق عليها عامة المفسرين، وإن اختلفت فيها عباراتهم وجملهم وتعبيرهم، فالتفسير وكما هو معهود فيها قد تنقل الأقوال على جهة اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فيكون معنى أحدها ليس هو معنى الآخر، لكن كلا المعنيين حق، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض^١.

المعيار الخامس: أن تحتل الآية معنى هذا القول الحادث.

ويشترط في هذا الضابط احتمال الآية المعنى العلمي المطروح، أو إشارة في النص إليه ولو من بعيد دون تكلف ومصانعة كما فعل ابن عاشور مع آية النحل: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، قال -رحمه الله-: «فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى (بسكالات)^٢، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيرة بمصطفى

(١) انظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤/٤١٦، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، طبعة: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) وهي كلمة أجنبية أصلها (Bicycle) أي دراجة هوائية.



النصوص ليطوع القرآن الكريم موافقاً مع كل حقيقة أو نظرية علمية موجودة في عالمنا الحالي!، ومن ذلك ما ذكره أحد الباحثين في قوله -تعالى-: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۗ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۗ﴾ [سورة الزلزلة].

فذكروا من صور ذلك اكتشاف (النفط) الذي نستخرجه اليوم من الأرض! مع أن الآية في يوم القيامة أو قبيل الساعة كما روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقاله الطبري ولم يذكر غيره^(١) وابن كثير ذكر أنه المعنى الذي نص عليه غير واحد من السلف^(٢) بل حكاها عامة المفسرين، ولا أعرف فيه خلافاً بين المفسرين، وإنما الخلاف وقع في نوع الخارج منها، فمنهم يقول يقول الموتى فحسب، ومنهم من يقول الكنوز الذهب والفضة وحسب، وفريق يجمع بينهما فيجعلهم جميعاً كما حكاها ابن الجوزي عن الفراء.

وفي ظني أن الذي جعل هذا القائل وأمثاله يذهب إلى مثل ذلك التأويل هو عدم انتباهه لهذا المعيار المذكور آنفاً، وهو أن الأصل في القرآن الكريم أنه كتاب هداية لا كتاب رياضيات وألغاز، يذكر فيه كل شيء بطريقة الترميز وفك الشفرات، وقد يقول قائل: ألم يقل الله -تعالى- يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

التفسير الإشاري، ومن ذلك ما ذكره النخجواني في الفواتح الإلهية عند تفسيره للفاتحة يقول: «عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات يسر الله أمرك وبلغك أملك أن تتأمل في الأبحر السبعة المشتملة عليها هذه السبع المثاني من القرآن العظيم المتفرعة على الصفات الذاتية الإلهية الموافقة للسموات السبع والكواكب السبعة الكونية وتتدبر فيها حق التدبر وتتصف بما رمز فيها من الأخلاق المرضية حتى تتخلص من الأودية السبعة الجهنمية المانعة من الوصول إلى جنة الذات المستهلكة عندها جميع الإضافات والكثرات» إلى آخر ما ذكر من الصور واضحة التكلف.

وهذا الكلام وإن كان مؤلفه يقصد به صقل القلب بمعرفة الرب إلا أنه يحمل في طياته جملة من المغالطات من جعل الصفات الذاتية سبعا، والكواكب سبعا، وغير ذلك، مما لو دقق فيه لكان من ضرب القول على الله بلا علم.

المعيار الثامن والأخير: الأصل في القرآن الكريم أنه كتاب هداية وبيان وليس كتاباً علمياً مادياً.

بمعنى أنه لا يشترط ذكر جميع العلوم والمكتشفات فيه أو الإشارة إليها لا سيما التي تحوي تفصيلات دقيقة ومعقدة كما يتكلف ذلك بعض المعاصرين؛ فيضطر إلى لي أعناق كثير من

(١) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقاتية ١٨/١، علوان نعمة الله بن محمود النخجواني (ت ٩٢٠هـ)، طبعة: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري، ٥٥٨/٢٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤٦٠/٨.

(٤) انظر: زاد المسير لابن الجوزي، ٤٧٧/٤.



ففهم من قوله -تعالى-: ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مذکور فيه كل شيء حتى علوم الدنيا، وهذا فهم سقيم بعيد لا يقول به حاذق ذو فطنة، وإنما المقصود من ذلك أنه تبيانٌ لكل شيء مما يحتاجه الناس في شؤون دينهم.

قال الطبري -رحمه الله- في تفسيرها: «نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكل ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب»^(١)، وقال البغوي -رحمه الله-: «بيانا، لكل شيء، يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام»^(٢)، وليس هذا فهم الأولين، بل قرر ذلك أيضا غير واحد من المتأخرين كالألوسي قال -رحمه الله-: «والمراد من كل شيء على ما ذهب إليه جميع ما يتعلق بأمور الدين أي بيانا بليغا لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملة أحوال الأمم مع أنبيائهم -عليهم السلام-، وكذا ما أخبرت به هذه الآية من بعث الشهداء وبعثه عليه -الصلاة والسلام-، فانتظام الآية بما قبلها ظاهر، والدليل على تقدير الوصف المخصص للشيء المقام وأن بعثة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، إنما هي لبيان الدين...» أه^(٣).

قال الطبري -رحمه الله- في تفسيرها: «نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكل ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب»^(١)، وقال البغوي -رحمه الله-: «بيانا، لكل شيء، يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام»^(٢)، وليس هذا فهم الأولين، بل قرر ذلك أيضا غير واحد من المتأخرين كالألوسي قال -رحمه الله-: «والمراد من كل شيء على ما ذهب إليه جميع ما يتعلق بأمور الدين أي بيانا بليغا لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملة أحوال الأمم مع أنبيائهم -عليهم السلام-، وكذا ما أخبرت به هذه الآية من بعث الشهداء وبعثه عليه -الصلاة والسلام-، فانتظام الآية بما قبلها ظاهر، والدليل على تقدير الوصف المخصص للشيء المقام وأن بعثة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، إنما هي لبيان الدين...» أه^(٣).

مع ذلك فأقول: يمكننا القول إن القرآن فيه تبيان لكل شيء ديني ودنيوي مادي باعتبار واحد، وهو القول بأنه يحيل إلى أرباب الاختصاص أو من عنده جواب السؤال المطروح، فالإحالات في القرآن الكريم تجري عادة على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحالة على القرآن نفسه ومثاله قوله -تعالى- في سورة الأنعام ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقد بين -تبارك وتعالى- في مواضع أخرى أنه حرم الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

النوع الثاني: الإحالة على السنة النبوية، كقوله -تعالى-: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

النوع الثالث: الإحالة على أهل العلم أو الشأن والتخصص أو أحوال المكلف، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وهذه إحالة إلى من عنده جواب ما يشكل من العلم سواء كان هذا المحال إليه من علماء الشريعة، أو من غيرهم كل في تخصصه وفنه كما ذكره الشيخ طنطاوي جوهر في تفسيره الجواهر

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٧٨/١٧.
(٢) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن ٩٢/٣، الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ)، بتحقيق: حقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، طبعة: دار طيبة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٣) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع

المثاني ٤٥٢/٧، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، بتحقيق: علي عبد الباري عطية، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.



في هذه الآية^(١).

الخاتمة، وأهم النتائج والتوصيات

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على نبيه المصطفى، فمن خلال دراستي لهذا الموضوع قد توصلت إلى عدة نتائج؛ من أبرزها:

أولاً: تفسر القرآن وفق المنظور العلمي الحديث مما وقع الخلاف فيه بين العلماء من حيث قبوله ورده، والراجع في مسألة التفسير العلمي أنه مقبول إذا بُني على الحقائق العلمية لا النظريات والفرضيات العلمية غير المؤكدة والخاضعة للقبول والرد، ومن صورته المؤكد منها وهي كثيرة: كروية الأرض، وانعدام الضوء في سطح القمر وأن ما يخرج عنه إنما هو انعكاس للضوء، وأن المسطحات المائية أكبر من مسطحات اليابسة على سطح الأرض، ودوران الشمس، وأن عملية البسط والقبض التي تقوم بها الطيور هي سبب تحليقها... إلى غير ذلك من المسائل الثابتة يقينا.

ثانياً: إننا في حاجة إلى من يفسر لنا القرآن على ضوء الحقائق العلمية لبرهنة صحة دين الإسلام ويؤمن به الذين لا يرضون بغير هذا الأسلوب بشرط كونه وفق الضوابط والمعايير المرعية في التفسير العلمي.

ثالثاً: الحقائق العلمية المذكورة في القرآن الكريم هي للتدبر والتأمل لأخذ العظة والعبرة، لا لمجرد السرد العلمي فالقرآن كتاب هداية، ومنهجية التوغل والتعمق في ذكر تفاصيل العلوم المادية ليس من

وهذا النوع من الإحالات التي يمكن جعل معناه أوسع من حيث المرجع، وبالتالي عدم قصر أو حصر ذلك بعلماء الشريعة، بل بكل عالم في فنه وكل صانع بما يحسنه وكل بحسبه^٢.

• والخلاصة المرجوة هنا:

ومن وجهة نظري القاصرة، أرى أن هذه هي بعض أهم الضوابط والمعايير التي يجب مراعاتها من قبل المؤهلين لتفسير القرآن تفسيراً علمياً متوافقاً مع أصالة القرآن العظيم متى ما رُوعي في تفسير القرآن وفق هذه النظريات العلمية الحادثة مثل هذه النقاط المهمة التي ذكرتها بقدر الإمكان، وسيكون في وسع التفسير العلمي حينها أن يخرج لنا تفسيراً صحيحاً وفق المعطيات العلمية الحديثة، سالماً من المعارضة، وحتى لا تكون هذه التأويلات والاستنباطات محل تحريف، ومن ثم محط نقد. -وبالله التوفيق-

* * *

(١) انظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على بدائع المكونات وغرائب الآيات، للشيخ طنطاوي جوهرى -رحمه الله-، طبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ١٣٤٦هـ، ١١١/٨.

(٢) انظر: رسالة الدكتوراه للباحث بعنوان: "دور العرف في استنباط الحكم الشرعي دراسة مقارنة في التفسير الفقهي"، كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة، ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م.



مقاصده الأصيلية، بل الدخيلة. رابعاً: تلك المسائل والحقائق العلمية المذكورة في القرآن الكريم نستطيع توضيحها من خلال علماء التفسير العلمي بشرط أهلية المستنبط لأدوات التفسير الأصيلية أولاً، لأنه ينبني عليها في الأصل.

أجهزة الإعلام وغيرها بنشر التعريف بقواعد التعامل مع الجوانب العلمية والبراهين القرآنية وتسليط الضوء عليها وإظهار أسسها ومعاييرها الصحيحة حتى لا يكون ذلك باباً للطعن في القرآن الكريم.

خامساً: ضرورة الأخذ بكافة الضوابط والمعايير التي وضعها العلماء في التعامل مع التفسير العلمي.

سادساً: الغاية الأساسية للتفسير العلمي هي الدلالة على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، بل هو من عند الله العليم الخبير، ولبرهنة صدق دين الإسلام.

• أهم التوصيات

أولاً: ضرورة استغلال التفسير العلمي لإظهار الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وبرهنة صدق الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

ثانياً: أن يميز ويضاف التفسير العلمي كلون ومجال مستقل من مجالات الدراسات القرآنية وعلوم القرآن مع محاولة تجنب مسمى التفسير العلمي حتى لا يفهم أن تفاسير المتقدمين وغيرهم ليست علمية، ودفعا لإيهاام وصف العلم بالتطورات الحديثة دون غيرها من الآيات والبراهين الإلهية فيسمى مثلاً (التوفيق العلمي للقرآن)، أو (براهين القرآن)، أو (دلائل القرآن).

ثالثاً: أن تقوم الجهات الأكاديمية والهيئات العلمية كالجوامع والمعاهد الشرعية، بما في ذلك

* * *



فهرس المصادر والمراجع

القرطبي (ت ٦٧١هـ)، بتحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٧- الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على بدائع المكونات وغرائب الآيات، للشيخ طنطاوي جوهري - رحمه الله -، طبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ١٣٤٦هـ.

٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي (ت ١٢٧٠هـ)، بتحقيق: علي عبد الباري عطية، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٩- قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، د: عبير بنت عبد الله النعيم تقديم: أ. د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، الناشر: دار التدمرية، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

١٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧هـ.

١١- لمزيد تفصيل التفسير العلمي للقرآن في الميزان، تأليف د. أحمد عمر أبو حجر، طبعة دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: ٢٠٠١م.

١٢- معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، بتحقيق: حقه وخرج أحاديثه

أولاً: القرآن الكريم:

ثانياً: كتب التفسير وعلومه

١- اتجاهات التجديد، أ.د محمد إبراهيم شريف (ت ١٤٣٧هـ)، طبعة: دار وهبة - مصر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

٢- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، طبعة: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣- تفسير الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، بتحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤- تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري (ت ٣١٠هـ)، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، بتحقيق: محمد حسين شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩هـ.

٦- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين



- محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية
- سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- خامسا: كتب أصول الفقه
- ١- درء تعارض العقل والنقل، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، بتحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة دار الكنوز الأدبية، السعودية - الرياض: ١٣٩١ هـ.
- ثالثا: كتب الاعتقاد
- ١- بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الحنبلي (ت ٧٢٨ هـ)، بتحقيق: مجموعة من المحققين، طبعة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ.
- سادسا: كتب اللغة والمعاجم
- ١- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢ هـ)، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.
- ٢- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، بتحقيق: عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسن، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ.
- ٣- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ.
- رابعا: كتب الحديث وعلومه
- ١- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ، محمد بن اسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ.
- ٢- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- ٣- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، بتحقيق: (١٧) رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، طبعة: دار العاصمة، دار الغيث - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.
- سابعًا: المجلات العلمية ومواقع الإنترنت
- ١- التفسير العلمي وتَعَطُّل المنظومة الثقافية الإسلامية، أحميدة النيفر، شبكة إسلام أون لاين، الشبكة الدولية للمعلومات.
- ٢- مجلة البيان السعودية العدد: ٢٣٨ من رمضان ١٤١٠ هـ، إصدار: المنتدى الإسلامي.
- ٣- موقع الجامعة الإسلامية في ماليزيا.
- ٤- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، - دمشق سوريا، الطبعة الثانية: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ٤- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، المحقق: حمدي بن عبد